جعلت التنقل صعباً في جميع الحالات وأشبه بالمتعذّر في العديد منها. كما ضيّقتها الخلافات المتواترة بين الدول العربية، والازمات المتعاقبة التي تنشأ بين أنظمة الحكم فيها فتؤدي الى اقفال الحدود في وجه المواطنين واللاجئين على السواء.

والحقيقة، ان جهد الفلسطينيين الرئيس، في الفترة التي أعقبت تشردهم، انصبّ في اتجاهين كثرت المصاعب في كل منهما: تأمين المعيشة المنتظمة، السكن، العمل، الطبابة، التعليم وما شابه؛ وإعادة الاتصال بين الأسر والاقارب والتجمّعات المزّقة. لقد جرت هذه العمليات في ظروف غير مسعفة، وتوجّب على الفلسطينيين ان يعانوا معاناة مزدوجة، فيتأثروا بقسوة ظروفهم الخاصة وبظروف الفقر والتخلّف والظلم متعدّد الوجه السائدة في البلدان التي لجأوا اليها. وقد احتفظت سلطات هذه البلدان بخشية دائمة من ان تدفع النكبة القاسية ومسؤولية الانظمة العربية عنها أبناء فلسطين الى أعمال انتقامية، فخصّت الفلسطينيين بتشديد الرقابة عليهم، ومنعهم من ممارسة النشاط السياسي أو اقامة أية تنظيمات مستقلة، وحرم الفلسطينيون من حق التعبير حتى عن مأساتهم الاّ حين لا يؤثر تعبيرهم على أوضاع السلطات التي يرضخون لها. ومضت عملية البحث عن اللقمة بمشقّة هائلة، ولم يتيسر الحصول عليها من دون تنازلات أمام السلطات التي تملك المقدرة على حجبها.

في ظل هذه النكبة الماحقة وذيولها المتعدّدة، وربما، أيضاً، بسبب قسوتها غير الاعتيادية، لم ينسَ الفلسطينيون كيانهم المغتصب وتطلعهم للعيش الكريم فيه. وقد تململ الفلسطينيون حتى في أشد الظروف قسوة، وحاولوا ان يقوموا بشيء ما من أجل استعادة الكيان، ولم يتخلّوا، في أي وقت، عن حقهم في استعادته. وقد شهدت السنوات الصعبة الاولى عدداً من التحركات، قد يكون محدوداً وقليل الفعالية، لكنه أشرّ الى اتجاه الرياح القادمة، فقوّى حذر السلطات العربية منهم، ودفعها الى تشديد الرقابة عليهم.

ومن مستصغر الشرر، تجمّعت الوقدة التي أخذت بالسطوع مع اقتراب عقد الخمسينات من نهايته. فتشكّل الاتحاد العام لطلبة فلسطين، وتشكّل، أو أُعيد تشكيل، الاتحاد العام للعمّال، ثمّ توالى ظهور اتحادات ومنظمات جماهيرية ومهنية أخرى. في هذه الاتحادات التي أرّخ تشكيلها لبداية التحرك العام نحو بناء الكيان الوطني الفلسطيني الجديد، وبحكم نشأتها في معمعان الكفاح الملتهب ضد كل أشكال العسف، روعيت أكثر أسس الديمقراطية عصرية. وقد جاء هذا ثمرة عوامل عدة، لعل أبرزها شيوع التعليم العام، وتحرر المجتمعات اللاجئة من أسر التقاليد المحافظة. ومع الاشارة الى تماثل التجربة في الاتحادات كلها، يمكن التحدث عن تجربة اتحاد الطلاب التي بدأت بانشاء روابط للطلبة الفلسطينيين في دمشق وبغداد وبيروت والاسكندرية، فانضافت الى الرابطة التي نشأت في وقت أبكر في القاهرة. لقد أُنشأت هذه الروابط في غير فلسطين، في بلدان عربية تبيح قوانينها انشاء الجمعيات، لكن سلطاتها لم تتعفف عن التدخل في أدق شؤونها، فضلاً عن انها حظرت عليها العمل في السياسة. وبالنسبة للروابط التي نشأت في سوريا ومصر، أي في دولة الجمهورية العربية المتحدة، آنذاك، وهي أغلبية الروابط التي أسّست الاتحاد، واجه المؤسسون صعوبة من نوع آخر، فقد كان النظام في الجمهورية العربية المتحدة، على سلبيته كغيره من الانظمة ازاء حرية التنظيم، يتمتع بشعبية طاغية، فكانت معارضة هذا النظام تعرض المعارضين لتهم يقبلها الجمهور، ولم تكن تهم الخيانة أو التخريب أو الوقوف ضد وحدة الأمة العربية مستثناة منها. ومع ذلك، فان